

إلى الأستاذ نرفيق الحكيم

## الفن والاصلاح

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كلما ناز الجدل في معسر حول تقدير الفن وإطلاق حرية أو تقييدها بقيود صالح الجماعة والمحافظة على دعائم حياتها ، استحضرت في نفسي صوراً من الطبيعة ومن حياة الأمم التي تمثل النزعتين لأجد القول انفصل الذي يقرب نفسي من الصواب ؛ فإني أرتاح دائماً إلى أحاديث الطبيعة الأستاذة ، وإلى أحكام الحياة الصادقة الناجحة ، وأتخذها أساسين لصحة الأفكار والأعمال غير عابئ بعد ذلك بما يرسله النطق اللفظي والجدل النظري

وأنا الآن بسبيل تحكيم هذين الأساسين في القضية التي أثارها الأستاذ الكبير أحمد أمين بك ، وجادلها وعلق عليها الكاتب الفنان توفيق الحكيم ، وهي : آلفن للفن ؟ أم الفن للحياة ؟

\*\*\*

فأما الطبيعة وهي أستاذتنا التي أوردتنا عقولنا وعلومنا وفنوننا وتجاربنا ، وعرضت لنا نفسها عرضاً مكشوفاً لئلاها ونعرف أسرار علم بارئها وفنائها الأعظم . . . فقد أرشدتنا - لو كنا نستشرد بها - إلى أن الفن فيها إنما هو وسيلة للنفع والمصلحة لا للترف ولا للإطلاق عبقرية الخلق والتجسيم والتشكيل والتلوين على هوى طليق غير منسجم مع الاتجاه العام في الطبيعة كلها وقد أرشدتنا كذلك إلى النسبة التي يجب أن يكون الفن بها في الحياة وإلى ترتيب وجوده وظهوره في كائناتها . والذي لا شك فيه أن في كل شيء في الطبيعة عملاً ضرورياً وعملاً فنياً . والعمل الضروري هو الذي يضمن حياة الكائن ضمناً مباشراً . والعمل الفني هو الذي يضمن حسن إخراجها ، ولفظ الأنظار إليه وحمل الأحياء على الانتفاع به والمحافظة على استمرار نوعه وحمايته . ومن وراء ذلك الظاهر الفني نظرة علمية دقيقة مدركة لثاياتها ووسائلها جادة مقتصدة غير هائلة ولا مسرفة .

فوجود « الكيان » المادي « ونجسمة » وإقامة « هياكله » الضرورية وهيئة أسباب نفعه واستمرار وجوده هي محاور العمل الطبيعي الدائم في عالم الجراد والنبات والحيوان ، وهي الجهد المبذول في دؤوب واستمرار في جميع الفصول والمواسم ، ثم يأتي بعد ذلك دور التجميل والإخراج

فالجذور في النبات مثلاً لا جمال فيها ولا زينة وإنما هي عاشقة للظلمات والمفونات ، سارية أبداً بين الصخور والعقبات ، جاهدة باحثة عن الضروريات . فهي تقوم بأعظم العمليات وأدومها وأشقها وأنعمها لحياة الشجرة . ومع ذلك لا تحظى من تقدير السطحيين من الناس بما تحظى به زهرة خادعة فانية محدودة النفع والممر من الزهرات التي هي من فن تلك الشجرة والتي هي في الواقع خدعة من خدع تلك الشجرة لجلب اللقاح وتكثير النوع وحفظه

ولا جدال في أنه خير للشجرة ولصاحب الشجرة أن يحافظ على جذرها الأعوج القبيح ساكن الظلام ليحفظ أوليات حياتها ويرفدها بعوامل النماء ، من أن يبني بكثرة زهرها الجميل في فترة من فترات حياتها ويهمل جذرها حتى يمرض ويصيبه العجز والكلال عن السمي لذئابها . فإن بقاء الجذر صحيحاً عاملاً كفيل ببقاء الأمل في حياتها واستمرار وجودها وإنتاج ثمارها وأزهارها . وإن في الأشجار منافع كثيرة قد يكون جمال الأزهار أقلها عند من يقدر على العناصر الأساسية للحياة .

واسألوا جانبات الشوك وجامعي الأحطاب من البراري والقفار والوديان : أليسوا يمرون على الأزهار البرية الجميلة الفواحة المطر لا يعبأون بها كما يعبأون بالأشواك والأحطاب يجمعونها ليوقدوا النيران ويقيموا الجدران ، طلباً للدفع والماوى بين الأحوال القاسية التي تهدد حياتهم الضرورية ؟ كذلك البؤساء مادياً ومعنوياً ، المجهودون المنموكون من السمي في سبيل القوت والحق والمدالة يمرون بالتحف الزنية والآثار الأدبية التي أنتجت للترف العقلي والأعيب الذكاء وإزدهار حياة الفارغين الهانئين كما تمر جانبات الشوك وجامعو الأحطاب بالأزهار البرية التي لا توقد ناراً ولا تقيم مأوى ا وينبئ الأناجيل هوائيات الترفين مادياً أو عقلياً مقيماً

للأحكام حين نتحدث عن المسائل الكبرى التي تمس إصلاح مجتمع لا تزال أكثر آلامه ناشئة من التفاوت الفاحش مادياً وعقلياً بين طبقتيه العالية والسافلة، الترفه وهي قلة، والمجهدوه المهركة وهي الكثرة؛ فإن الإنصاف يقضى أن تكون المقاييس منتزعة من حياة الكثرة التي هي أشد التصاقاً بضروريات العيش، وأرهف إحساساً بمشكلاته، وأعظم تعرضاً لآلامه ونكباته، وأقوى اضطلاعاً بمخدراته

ومن هنا أخطأ الأستاذ توفيق الحكيم حين هون من شأن الجهود الأدبية الإصلاحية لما وازنها بالآثار الفنية الخالصة متخذاً حجته من ضياع كثير من نتاج الأولى وبقاء كثير من الثانية في ذاكرة الزمان، وحين قرر أن الأدب الأوربي لم يبلغ مبلغه العظيم بفضل نزوله معترك الحركات الإصلاحية، وإنما بفضل قيمته الفنية، وأن الآداب الأوربية لم تحترم يوماً فنانياً أو أدبياً لأنه مصطلح، ولكنها قد تحترم المصطلح إذا كان أدبياً أو فنانياً، وأنه لا ينبغي للنقاد والمصلحين أن يملوا على الفن اتجاهاً بينه ولا يجوز لهم أن يوصوه بالحكمة والإصلاح إلا أن يشاء هو ويرضى. لأن الفنان صانع المصطلح، ومصطلح المصطلح... وحين قرر مع الأستاذ الكبير العقاد أن اتجاه التاريخ الإنساني متقدم من الاجتماعية إلى الفردية وقرر أن الوعي الاجتماعي في الحيوان هو الذي جعل الحيوان حيواناً...

إن المصطلح هو الذي يمهّد للجماعة أن تحيا وتستكمل عناصر نموها وكاملها حتى يكون فيها فنانون وعلماء وقادة وصناع وزراع... حتى يكون فيها جذور الحياة ونماذجها وأزهارها... وعمله هو السابق المهيم لنضج الملكات الفنية والكفايات الأدبية التي ترد في عهود الجود والجهالة موارد محدودة ومشاريع آسنة. ولا جدال في أن الكفاية الفنية في الفنان والأديب تتسع وتعمق كلما كثرت أمامها منابع الوحي وجدول الأفكار والأعمال والمشاهد. ومن الذي يهيم لها هذا كله غير المصطلح الذي تستهوى نفسه دائماً حياة النفع العام والتهديب العام والكمال العملي، وبأخذ نفسه من نفوس أمته ويتسع قلبه لمؤثرات الحياة والاجتماع ويدرك أكثر أسرارها؟

وقد يكون الفنان - وهو في الغالب محدود الهواية - يهوى جانباً معيناً من الحياة وينبله وجدان واحد يستولى عليه ويصنع إنتاجه بصيغة واحدة، فلا يستطيع أن يدرك جوانب

الحياة الأخرى إلا إذا كان فناً عبقرياً موسوعياً واسع الانتقاة متعدد الأوتار؛ فإنه حينئذ يلتقي بالمصطلح بل يكون هو المصطلح... إذ أن المصطلح في واقع الأمر فنان ولو لم ينتج آثاراً فنية. بل هو أعظم من فنان... هو «مخرج» يخرج حياة أمته وينسقها وينظم شؤونها ويمرضها عرضاً جميلاً. والمخرج كما يعلم الأستاذ الحكيم أصبح الآن هو الكل في الكل في إبراز الفنون العليا في الحياة الحاضرة. ولولاه لم يستطع الفن أن يفزوا الحياة الآن هذا الفوز الشامل، ولم يكن لكثير من الفنانين الفرعيين إلا ذكر ضئيل المصطلح هو رائد «فن الحياة» وهو لا شك أعظم الفنون لأن الحياة يجب أن «تعايش» أولاً في طمأنينة وسعادة وعدالة يشمر بها الجميع. ثم يأتي بعد ذلك دور «فلسفتها» التي تحلوا المترفين عقلياً من الفلاسفة والفنانين والأدباء الطلقاء الفارين والمصطلح بما له من هذه الرصاة الشاملة أن يقول للفنان:

إنك «نشاز» في جوقة أمتك... أو هادم لوحدها، أو خارج على حدود مجتمعا، أو مفسد لثلبها الأعلى، أو مبلبل لخواطرها. وله أن يقترح عليه عملاً بعينه يراه لازماً لكمال الإخراج في حياة أمته، وله أن يقتضيه «الضريبة الأدبية» في مستوى معين يريدها على الفقراء في الإحساس الذاتي بالفن والجمال إن حياة الاجتماع الإنساني شأن عظيم! بل هي أعظم شؤون الإنسان: فنما تفجرت ينابيع فكره ولقته وراحته وعلومه وفنونه وصناعاته، ومنها أدرك قوة نفسه بين غمرات القوى العمياء، بل منها أدرك «فرديته» وحرية وحقوقه، ومنها ظهرت تفاعلات نفسه مع جنسه هذا التفاعل الذي أخرج كوامن نفسه وخصائص جنسه. فليس من الحق أن تهدر حقوقها في سبيل حقه ولو كان فناً... وليس من الصحيح أن يقرر أن الإنسان سائر من الاجتماعية إلى الفردية حتى في الفن. إلا أن يكون هذا انتكاساً. وليس من الصحيح أن الوعي الاجتماعي في الحيوان هو الذي جعله حيواناً. وأنه بالتالي كلما كثرت الإحساس بالجماعة في جماعة ما، كان هذا دليلاً على أنها أدنى إلى حياة الحيوان... كلا! هذه أحكام لا أدري كيف أرسلها الأستاذ الحكيم؟!

فالواقع أن نسبة الغيرية والإيثار والإحساس بالجماعة وبالجنس البشري كله والتضحية بالنفس في سبيلها - وهي دعائم الاجتماع - تنمو نمواً عظيماً. وليس من هذه الصفات شيء